التوحيد المصرى

خلال الثمانين سنة الأخيرة ، قام العديد من علماء المصريات بدراسة آلهة مصر وديانة المصريين القدماء بعناية واهتمام ، إلا أن الصعاب التى تحيط بهذه الموضوعات لم يتم التغلب عليها بعد. وتقع مسئولية وجود هذه الصعاب على المصريين أنفسهم لأنهم لم يضعوا كتباً تتناول ديانتهم وتفسر معتقداتهم. لكن عدداً كبيراً من التراتيل المقدمة لآلهتهم ، ومن الأساطير التى تدور حول آلهتهم وصلت إلينا ، ومنها – مع الشكر لمن نشروا النصوص المصرية خلال الثلاثين سنة الأخيرة – أصبح من الممكن الآن أن نصل إلى عدد من الإستنتاجات الهامة عن الديانة المصرية وطابعها العام. ناقش علماء المصريات القدامى مسألة ما إذا كانت هذه الديانة ديانة توحيد ، أم تعدد آلهة ، أم وحدة الوجود وعبادة الطبيعة ، والإختلافات فى الآراء التى توصلوا إليها سوف توضح صعوبتها. إعتقد شامبوليون Champollion أنها كانت " ديانة توحيد خالصة ، أظهرت نفسها بمظهر تعدد الآلهة الرمزى "[1]. وظن تيله Tiele أنها كانت متعددة الآلهة فى البداية ، لكنها تطورت فى اتجاهين متضادين تضاعفت أعداد الآلهة فى أحدهما ، وفى الآخر دنت أكثر فأكثر من التوحيد [2]. أما نافيل Naville فقد تعامل مع الأمر على أنه " ديانة الطبيعة ، التى مالت إلى وحدة الوجود "[3]. وأقر ماسبيرو Maspero أن المصريين قد أطلقوا أوصاف " إله واحد " و " الإله الواحد " على العديد من الآلهة ، حتى عندما كان الإله مشتركاً مع إلهة وإبن ، إلا

أنه يضيف " ce dieu Un n'était jamais Dieu tout court "[٤] {لم يكن هذا الإله الواحد أبداً إلهاً ناقصاً تماماً} ، " الإله الواحد " هو الإله الواحد آمون ، أو الإله الواحد بتاح ، أو الإله الواحد أوزيريس بمعنى أنه كائن محدد له شخصية وإسم وخواص وكساء وأعضاء وأسرة ، رجل أكثر اكتمالاً بما لا حد له من كل الرجال. هو شبيه بملوك هذه الأرض ، وقدراته – مثل كل الملوك – محدودة بقدرات الملوك المجاورين له. إن فكرة وحدانيته فكرة جغرافية وسياسية مثلما هى دينية على الأقل. رع الإله الواحد لهليوبوليس ليس مثل آمون الإله الواحد لطيبة. نادى المصرى فى طيبة بوحدانية آمون مع استثناء رع ، ونادى المصرى فى هليوبوليس بوحدانية رع مع استثناء آمون. وكل إله واحد – يتم تصوره بهذه الطريقة – ما هو إلا الإله الواحد للمقاطعة أو البلدة ، وليس الإله الواحد للأمة تعترف به كل أنحاء الدولة.

فى المقابل ، كتب ده روجيه de Rougé فى سنة ١٨٦٠ " إن وحدانية كائن أعلى أوجد نفسه بنفسه ، وأبديته ، وقدرته ، وتوالده الأبدى كإله ، ونسبة خلق العالم وكل الكائنات الحية لهذا الإله العلى ، وخلود الروح الذى تكمله عقيدة العقاب والثواب. مثل هذا هو الأساس الشامخ والمستمر الذى – رغماً عن كل الإنحرافات وكل الزخارف الأسطورية – يجب أن يؤمَن لمعتقدات المصريين القدماء مكاناً مشرفاً بين ديانات الزمان القديم "[٥]. وقد عبر بروجش Brugsch فى كتابه عن ديانة وأساطير المصريين القدماء[٦] عن اقتناعه الراسخ أن سكان وادى النيل عبدوا – منذ أقدم العصور –

إلهاً أبدياً غامضاً لا إسم له. هذا الإقتناع الذى أسسه على العديد من فقرات النصوص المصرية الدينية والأخلاقية ، التى يُشار فيها إلى كائن قدير أوجد نفسه بنفسه ، يبدو أنه لا يختلف عن الإله* عند الأمم المعاصرة. من هذه الوثائق نعلم أن علماء الدين المصريين آمنوا أنه فى زمن ما – بعيد للغاية ، حتى بالنسبة لهم – لم يكن يوجد شئ عدا كتلة بدائية غير محددة من الماء يجللها الظلام ، لكنها احتوت على المصادر النهائية لكل شئ موجود الآن فى الكون. وفى زمن متأخر ، نُظر إلى هذه الكتلة المائية – المسماة " نونو " –على أنها " أبو الآلهة ". شئ ما فى هذا الماء – شكّل جزءاً أساسياً منه – أحس بالرغبة فى الخلق – متخيلاً فى نفسه أشكال الكائنات والأشياء التى نوى أن يخلقها – وصار فعّالاً ، وكان المخلوق الأول الناتج هو الإله " تم " أو " خبرى " ، الذى كان تشخيصاً للقوة الخالقة فى الماء البدائى. وأوجد هذا الإله من جسده " شو " (أى حرارة) و" تفنوت " (رطوبة) ، وأنتجا هما " جب " (أرض) و" نوت " (سماء). صمّم تم أو خبرى أشكال كل شئ فى عقله وأعلن قلبه برغبته فى الخلق ، التى شُخصت فى " توت ". تلقى هذا الإله الدافع الخلاق ، واخترع فى ذهنه اسماً للشئ الذى وجب خلقه ، وعندما كان يلفظ هذا الإسم يظهر الشئ للوجود. فى نصوص عهد الأسرات الأولى ، اشترك "پتاح " و" خنمو " مع إله المياه البدائية – نونو أو نو – وكان عليهما أن يسووا المخلوقات والأشياء التى ينطق توت بأسمائها. وفضلاً عن ذلك ، فقد أشركوا الإلهة " ماعت " مع توت ، وكان دورها فى الخلق شديد الشبه بما ينسب للحكمة فى سفر الأمثال {من العهد القديم}.

لا نعرف ما هى الأشكال التصويرية الأولى لـتم وبتـاح وخنمو ، لكن الأول والثانى يظهران فى شكل بشرى فى فترة زمنية مبكرة ، ويُمثل الثالث بشكل خاص لكبش أو " كودو ". كما يظهـر رع – الذى اغتصب خواص تم – على شكل رجل. إلا أننا لا نعرف شكلاً لصاحب القوة الخالقة الأصلية التى أوجدت نفسها بنفسها فـى الكتلة المائية لنونو. لم يستطع العقل البشرى أن يتخيله ، ولم تستطع يد الإنسان أن تشكل صورة أو شبهاً له. فى عهد الأسـرة الثامنـة عشرة ، ألَّف كاتب مصرى ترتيلة إلـى " حـپ " (أو حعـپ ، أو حعپى) إله النيل ، تتبَّع فيها أصله حتى كتلة نونو المائية العظيمـة. قال عنه: " لا يمكن نحت شكله فى الحجر وعليه التاج الأبيض ، لا يمكن رؤيته ، لا يمكن تأدية العبادة له ، لا يمكن تقديم الهدايا له. لا يُتقرب إليه فى حرم مقدس. لا يعرف أحد مكانـه. لا يوجـد فـى محراب منقوش. لا يمكن أن يحتويه مأوى. لا يوجد من يعمل مرشداً لقلبه " [٧]. هكذا تم وصف إله النيل ، فقط لأنه كان الإنبعاث المباشر من القوة الخالقة العظيمة الغامضة المجهولة التى لا تُرى ، تلك التى وُجدت للأبد وكانت مصدراً لكل الأشياء المخلوقة. تم عمل تماثيـل لإله النيل فى عهد الأسرات المتأخرة من الإمبراطوريـة الحديثـة ، لكن الترتيلة التى سبق الإقتطاف منها تمت كتابتها قبل ذلـك بعـدة قرون.

الأدب الدينى لمصر القديمة وفير فى كل العهود ، وحتـى الآن لم نجد فى أى منها ، أية صلاة أو دعاء موجـه لهـذا الإلـه المجهول الذى لا يُرى. لكن فى مجموعـة الحكـم الأخلاقيـة – أو

التعاليم – التى ألفها حكماء قدامى ، نجد عدة إشارات لقوى إلهية لم يُطلق عليها اسم شخصى. الكلمة التى استخدمت للدلالة على هذه القوة هى " نتر " أو أو ، أو " نثر " . وقد حاول كثيرون أن يعيّنوا معنى هذه الكلمة ، وأن يجدوا أصل اشتقاقها اللغوى ، لكن المعنى الأصلى لها ما زال مجهولاً حتى الآن. إن سياق الكلام فى الفقرات التى تظهر فيها يشير إلى أنها تعنى شيئاً مثل " إله أبدى ". ونفس الكلمة استعملت مراراً لتصف شيئاً – حياً أو غير حى – يملك قوة أو طبيعة مميزة بشكل غير معتاد بعض الشئ. وهى فى الجمع " نترو " ، تمثل الكائنات أو الأشياء التى تُعبد بشكل أو بآخر. الإله العظيم المشار إليه فى الحكم الأخلاقية ، تم الكلام عنه أيضاً بإسم " با نتر " ، " الإله " تماماً كما يتكلم العرب عن " الله ". الأمثلة التالية المأخوذة من نصائح كاجمنا (الأسرة الرابعة) ونصائح بتاح حتب (الأسرة الخامسة) ستوضح استخدام كلمة نتر [٨]:

١- الأشياء التى يعملها الإله لا يمكن معرفتها.

٢- لا تفزعوا أيها الناس. الإله يعترض على ذلك.

٣- الخبز اليومى من تقدير الإله .

٤- عندما تحرث ، العمل (؟) فى الحقل ، يعطيك الإله .

٥- إذا كنت رجلاً كاملاً ، إجعل ابنك يُرضى الإله .

٦- الإله يحب الطاعة ، والمعصية مكروهة من الإله .

٧- حقاً ، الإبن الحسن (أو الجميل) هبة الإله .

تشير هذه المقتطفات إلى أن كُتَّاب النصائح آمنوا بإله خططه غامضة. هو من يُقيت الناس ، يقسم لكل نصيبه من متاع الدنيا ، ويتوقع من الناس أن يطيعوا أوامره ، وأن يربوا أولادهم بطريقة تسره. مع مضى الوقت ، تغيرت أفكار المصريين عن الإله وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة قل شعور الجفاء الذى نظروا به إليه وتكونت فى عقولهم فكرة أشمل عن شخصيته. ويتضح هذا من المقتطفات التالية المأخوذة من نصائح أو تعاليم خنسوحتپ [٩]، المعروفة عموماً بإسم " مواعظ آنى ":

١- الإله 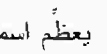 يعظَّم اسمه.

٢- بيت الإله يمقت الثرثرة. صلِّ بقلب محب ، بكلمات مستترة. سوف يفعل ما تحتاج إليه ، سوف يستمع إلى دعائك ويتقبل قربانك.

٣- إنه إلهك - - الذى يمنحك وجودك.

٤- الإله قاضى الحق.

٥- عندما تقدم قرباناً لإلهك ، إحذر من قربان يمقته.

أصبح الإله - المجهول فى عهد الأسرات الأولى - الآن كائناً يهب الناس حياتهم ووسائل معاشهم ، ويمكن التقرب إليه فى معبد أو بيت ، تسره القرابين والصلوات التى تُرفع إليه فى صمت ، ويرغب فى تعظيم اسمه. ونقرأ فى مقتطف آخر:

٦- " لاحظ خططه (أو تقديره) بعينيك. فرِّغ نفسك لإنشاد التسابيح باسمه. إنه يهب الروح لمئات الألوف من الأشكال. هو يعظِّم من يعظِّمه ".

ويستمر النص: " الآن ، إله هـذه الأرض هـو " شـو " رئيس الآفاق. أشباهه على الأرض ، ولهـم تقـدم القرابين والبخور كل يوم ". شو بلغة الأساطير هو النور والحـرارة المنبعثان من الإله البدائي خالق نفسه ، مُحيي نفسه ، موجد نفسـه ، حورس أو تم أو خبرى. يبدو لى أن الكائن المشار إليه فى الجـزء الأول من المقتطف رقم ٦ ، يختلف عن شو ، إلـه هـذه الأرض. وعلينا أن نتذكر أن إمنحتب الرابع – عابد قرص الشمس – عبـد " حورس الأفقين فى إسمه شو (أى حرارة) الـذى هـو فـى آتـون (القرص) ".

تعاليم امن م ايت – إبن كانخت – التى يحتمل أنها كُتبـت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، تثبت بوضوح تام أن الكاتـب ميـز بجلاء بين الإله والآلهة رع ، و إله القمر ، وتوت ، وخنـوم رع ، وآتون ، وغيرهم. ويشير بوضوح إلى الإله فى المقتطفات التالية:

١- إترك الرجل الغضبان بين يدى الإله ... الإلـه يعـرف كيـف يجازيه (عمود ٥).

٢- لا تستخف بخادم الإله من أجل غيره (عمود ٦).

٣- إهتم بـ " نبرتشر " (سيد الكون) (عمود ٨).

٤- مع أن لسان الإنسان يُسيِّر القارب ، فإن نبرتشر هـو الربـان (عمود ١٩).

٥- الحق حمَّال (أو ناقل) الإله (عمود ٢١).

٦- اقعد بين يدى الإله (عمود ٢٣).

٧- الرجل يُعد الفش للبناء ، لكن الإله هو المعمارى {الذى يبنيه}. إنه هو الذى يُلقى ، إنه هو الذى يُنشئ كل يوم. إنه هو الذى يوصل الإنسان إلى امنتت (العالم الآخر) (حيث) يأمن بين يدى الإله (عمود ٢٤).

٨- حب الإله - يُسبَّح بحمده ويُعبد ! - أكبر من احترام الرئيس (عمود ٢٦) [١٠].

نلاحظ أنه لا توجد فى هذه المقتطفات أى محاولة لوصف الإله - نتر - وأنه لم يُدع أبداً " واحد " أو " الواحد ". الحقيقة أن المصريين شعروا أنهم لا يستطيعون وصفه ، وأنهم لا يعرفون عنه شيئاً ، عدا أنه موجود. هذا الإله العظيم المجهول الذى لا يُرى ولا إسم له ، سلَّم لعدد من الكائنات الأقل درجة إدارة وتدبير السماء والأرض وكل شئ فيهما. هؤلاء الطيبون المهتمون بالبشر والسلالة البشرية سموهم آلهة ، وأولئك الخبثاء المعادين سموهم شياطين. كل جماعة من السكان أو قرية - مهما كانت صغيرة - كان لها إلهاً ، تعتمد قدرته وأهميته على الثروة والوضع الإجتماعى لعباده. لكن المصرى - بينما عبد إله - نتر - مدينته وموطنه ، كان مستعداً للسماح بوجود نتر آخر ، الذى يحتمل أنه الكائن الذى ندعوه الإله. مثال ذلك ما جاء فى الفصل رقم ١٢٥ من كتاب الموتى ، يقول الميت فى إقراره أمام الإثنين وأربعين إلهاً: " لم ألعن إلهاً " و" لم أزدر إله مدينتى " 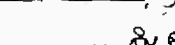 [١١]. كان التمييز بين الإله و" إله المدينة " واضحاً تماماً فى ذهن المصرى.

إدّعى البعض أن إمنحتب الرابع {اخناتون} هو أول موحِّد في مصر ، إلا أن التسليم بصحة هذا القول يعتمد على ما تعنيه كلمة التوحيد ، أى عقيدة أنه لا يوجد إلا إله واحد. الفقرات التى اقتطفناها أعلاه من البرديات الأخلاقية تُظهر أن الكهنة المصريين والناس المتعلمين كانوا موحدين ، حتى ولو لم يصرحوا بوحدانية الإله الذى يشيرون إليه. إن فكرة الوحدانية كانت مفهومة تماماً فى الإمبراطورية القديمة. لكن هذه الخاصية نُسبت فى نصوص الأهرام للآلهة وللملوك علاوة على الإله. مثال ذلك فى " تتى " (سطر ٢٣٧) ذُكر " السيد الواحد " 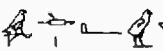 ، وفى " مرن رع ١ " قيل عن الملك أنه " الإله العظيم وحده " (سطر ١٢٧) و" سيد الأرض حتى حدودها " (سطر ١٢٨) ، وقيل أنه أقوى من كل إله ، وفى " پيى ٢ " (سطر ٩٥٢) قيل عن الملك أنه " واحد فى السماء " 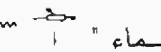 . والآن يختلف توحيد إمنحتب الرابع عن توحيد كُتَاب البرديات الأخلاقية. ووحدانية آتون التى نادى بها شابهت وحدانية العديد من الآلهة الشمسية المصرية الأخرى وأيضاً آلهة لم تُنسب لها أصلاً خواص شمسية. تم وحورس الأفقين ورع ، قيل عن كل منهم أنه " واحد " و" الواحد " ، سواء ذكر بمفرده أو معاً فى ثالوث ، وأُطلق نفس اللقب على آمون بعد اندماجه مع رع. وبينما كان إمنحتب الرابع ينادى بوحدانية آتون فى مدينة آتون ، كان المتعبد لآمون ينادى بوحدانية آمون فى طيبة ، والمتعبد لرع أو تم ينادى بوحدانية إلهه فى هليوپوليس ، وهلم جرًا

فى كل البلد. ومن الطريف ملاحظة أن المنذورين لعبادة " نيث " فى صا الحجر أعلنوا أن إلهتهم " واحدة " [١٢]، وأنها بدأت بخلق نفسها ، ثم أخرجت رع من جسدها. وفى القسم الثانى من ترتيلة بديعة للثالوث الشمسى ، والتى حُفظت فى بردية آنى (صحيفة رقم ١٩) ، والمخاطب فيها رع-تم-حوراختى " الواحد " ، يُضاف أوزيريس لهذا " الواحد " ، هكذا: " الحمد لك ، يا أوزيريس ، {أيها} السيد الأبدى ، أون نفر ، حوراختى ، صاحب الأشكال المتعددة ، والصفات الجليلة ، پتاح سكر تم ، فى انو ، سيد المحراب الخفى وخالق حت كا پتاح (منف) ... أنت تدير وجهك نحو العالم الآخر ، وتجعل الأرض تلمع مثل تشعم (النحاس المذهب؟). يرتفع الموتى لينظروا إليك ، يتنفسون الهواء ويرون وجهك مثل {وجه} آتون (قرص الشمس) عندما يشرق فى أفقه. قلوبهم راضية منذ رأوك ، أنت الأبدية والبقاء."[١٣].

من المستحيل أن يكون إمنحتب الرابع قد استرسل فى تأويلات فلسفية مثل وحدانية الإله – التى آمن بها أحياناً {؟} – والتى لم تتطور إلا على يد الفلاسفة الإغريق بعد ذلك بألف سنة. ومع ذلك من المحتمل جداً أنه أراد أن يكون آتون – كإله للحق المطلق والعدالة – إلهاً قومياً لمصر وحاكماً إلهياً لكل بلاد السودان وغرب آسيا التى تقع تحت سيطرته. إذا كان هذا ما أراد ، فقد وُلد متأخراً جداً ليقوم بهذا العمل ، حتى إذا افترضنا أنه كان لائقاً من الناحيتين البدنية والذهنية ليتكفل بمثل هذه المهمة. فعندما اعتلى العرش ، كان آمون – أو آمون رع ، ملك الآلهة ، سيد العالم – ما أراد إمنحتب

أن يكون عليه آتون بالفعل. طرد آمون الهكسوس ووضع أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة على عرشه ، ومنح النصر لخلفاء أحمس الأول وملأ مصر بثروات السودان وغرب آسيا. وأصبح آمون السيد الأعلى للآلهة ، وملأت شهرته القسم الأعظم من العالم المعروف للمصريين. كان من المستحيل الإطاحة بكهنوت آمون الثرى الكبير ، متجاهلاً الأنظمة الإجتماعية التى كان آمون على رأسها. لم يكن توحيد إمنحتب جديداً من وجهة النظر الدينية ، إلا أنه كان كذلك من وجهة النظر السياسية. لقد تكون أساساً من اعتقاد أن آمون لم يكن مناسباً كإله قومى لمصر والسودان وسوريا ، وأن آتون أكثر عدلاً وأكثر صلاحاً وأكثر رحمة من إله طيبة حديث العهد بالنعمة ، وأن آتون وحده هو المناسب ليكون إلهاً قومياً لمصر والبلاد التى تقع تحت سيطرتها. عندما حاول إمنحتب أن يضع آراءه فى قالب عملى صاحَبت محاولته – كما يكون الحال كثيراً مع " المصلحين الدينيين " – مصادرة أملاك عظيمة القداسة ، وبلبلة اجتماعية وبؤس. كان من حسن حظ مصر أنها أنتجت ملكاً واحداً فقط يجمع فى آن واحد كونه متفرداً ومثالياً ومسالماً و" مُصلحاً دينياً ".

حاول إمنحتب الرابع أن يؤسس ديانة **إيجابية** ، وكمجدد دينى تكلم وتصرف كما لو كان ذلك بوحى إلهى وأن لديه رسالة إلهية للبشر ، وحاول بكل طريقة أن يتحول عن تقاليد الماضى. لم يدرك أبداً أنه إذا كان على ديانته أن تستقر وتزدهر فيجب أن تكون متصلة على طول الخط مع الأفكار والأعراف القديمة التى وجدها بين الناس. لم يبدأ الدين فى مصر معه. لقد فشل فى المهمة التى

كلف نفسه بها لأن ديانته لم ترق للعرف والسليقة الدينية والأحاسيس التى كانت موجودة بالفعل بين المصريين ، ولأنه لم يحتمل الصيغ التقليدية التى جسدوا فيها مشاعرهم الروحية.

١- *L'Égypte*, Paris, 1839, p. 245.

٢- *Geschiedenis van den Godsdienst in de Oudheid,* Amsterdam, 1893, p. 25.

٣- *La Religion*, p. 92.

٤- *Histoire Ancienne*, Paris, 1904, p. 33.

٥- *Études sur le Rituel Funéraire* (in *Rev. Arch.*, Paris, 1860, p. 12.)

٦- *Religion und Mythologie*, Leipzig, 1885, p. 90.

• هامش للمترجم : استخدمت " الإله " فى المواضع التى ذكر فيها المؤلف " God " بمعنى الله. ولا يخفى على القارئ أن المقصود عند المصريين القدماء يختلف عن المقصود باللغة العربية.

٧- أنظر *Egyptian Hieratic Papyri in the British Museum*, Second Series, London, 1923, pl. LXXIII. (Introduction, p. 31.)

٨- مأخوذة من بردية پريس Prisse المكتوبة فى عهد الأسرة الحادية عشرة أو الأسرة الثانية عشرة. أنظر Virey, *Études sur le Papyrus Prisse*, Paris, 1877 ، حيث توجد نسخة من النص الهيراطيقى وترجمة فرنسية له.

٩- أنظر Chabas, *L'Egyptologie, Série I.*, Chalon-sur-Saône, Paris, 1876-78; & Amélineau, *La Morale Egyptienne*, Paris, 1892.

١٠- أنظر *Egyptian Hieratic Papyri*, ed. Budge, Second Series, London, 1923.

١١- من بردية " نبسنى ". أوائل عهد الأسرة الثامنة عشرة.

١٢- أنظر Budge, *Gods of the Egyptians*, Vol. I, p. 458.

١٣- هامش للمترجم : لمن يرغب فى الإطلاع على النص الهيروغليفى من بردية آنى وترجمته ، أنظر: E.A.Wallis Budge, The Egyptian Book of The Dead, 1895 (Dover Edition, 1967), Plate XIX, pp. 126-127 & 323.